المحاضرة الثانية

المصادر الغربية وكتابة تاريخ الجزائر في العهد العثماني

تعتبر المصادر الغربية من الوثائق التي لا بد من العودة إليها لكتابة تاريخ الجزائر الحديث، فكتابها عرفوا المنطقة وكتبوا عنها وتطرقوا إلى الكثير من الأحداث التي لم يكتب عنها المؤرخون المحليون، ولكن رغم أهميتها إلا أن لها حدود لا يمكن تجاوزها لأن لكل عصر ظروفه الخاصة وإلتزاماته.

فقد امتازت فترة القرن 17/16 بالصراع بين الإسلام والقوة والمسيحية، والمواجهة بين دول المعرب ودول أوروبا المسيحية، كما امتازت أيضا ببروز الجزائر كقوة سيطرت على المتوسط.

إن الإيديولوجيات التي ظهرت استمدت جذورها من الأحداث الصاخبة في الصراع بين الإسلام والمسيحية والذي أثر بدوره على إيديولوجيات الأدب والكتابة التاريخية عموما.

- مميزات هذه الفترة:

إنه من غير الممكن الخوض في تاريخ الجزائر العثمانية دون الإطلاع على ما كتبه الأوروبيون من رحالة، وقناصل، وجواسيس، ورهبان وسياح ومغامرين وأسرى الذين هم أجانب عن المجتمع الجزائري، أقاموا بين أحضانه فترة من الزمن تركوا انطباعاتهم التي أصبحت مصدرا مهما في كتابة تاريخ الجزائر العثماني، وقسم كبير من هذه المصادر لا يمكن أن نستغني عنها أبدأ، ففي كتب هؤلاء الأوروبيين شهادات وأوصافا وتواريخ مضبوطة وإحصاءات وقوائم الحكام وتحليلات لحوادث خطيرة، وتقارير وتفاصيل لا نجدها في غير هذه الكتب.

وسنركز هنا على سبعة مصادر هامة وهي:

1. فراي دياقودي هايدو (Fray Diego de Haedo) طبوغرافية تاريخ الجزائر العام:

للكتاب أهمية كبيرة لأسباب عديدة يأتي في مقدمتها أن صاحب هذا التأليف هو من الذين عاشوا ويلات الأسر في الجزائر، كما يعتبر من المستنيرين القلائل، التي حظيت باستضافتهم سجون الجزائر شأنه في ذلك شأن غيره من مشاهير الكتاب الإسبان.

ينقسم الكتاب إلى بابين كبيرين باب خصصه لتاريخ حكام الجزائر العثمانيين الأتراك وباب خصص لوصف مدينة الجزائر العاصمة، فالجزء الأول منه تعرض فيه المؤلف إلى حياة الأسرى المسيحيين، كما تعرض بالذكر في الجزء الثاني لشهداء العقيدة منهم الذين ماتوا في سجون الجزائر الذين من بينهم على وجه الخصوص المسيحيون الأسبان، أما الجزء الثالث لقد خصص للمرابطين الجزائريين أو رجال الزوايا.

لقد اعتمد "هايدو" في كتابه على شهادات حية سجلها ، وكما اعتمد على المصادر التاريخية المعروفة "وصف إفريقيا " لليون الإفريقي وجغرافية استربون Estrabon في تحديد المواقع الجغرافية الطبيعية والساحلية منذ عهد الرومان وقد خصص "الراهب هايدو" 41 فصلا عن الحياة الإجتماعية وعادات الجزائريين، ترجمت أجزاء من هذه الأعمال من قبل Berbrugger و Monnerou ونشرت بالمجلة الإفريقية العدد 14 و15 إلى جانب ترجمة Gramont M. جزء خاص بملوك الجزائر.

2. الأب بيير دان (Pierre Dan) تاريخ بربارية وقراصنتها:

سمحت له تلك الزيارة أن يجمع المادة الأولية لكتابه "تاريخ بربريا وقراصنتها" الذي نشر بباريس سنة 1637. وفي السنة الأولى التي توفي فيها سنة 1649 ظهرت طبعة جديدة للكتاب بها إضافات كثيرة، وهي تضم حوالي 550 صفحة من الحجم الكبير، ويضم المتن سنة أجزاء موزعة على أربعة وسبعين فصلا في المجموع.

ففي الجزء الأول تحدث الكاتب على تاريخ القرصنة وشيوعها في شمال إفريقيا، خصص له ثمانية فصول، وتناول فيه تفسير مصطلحي "بار باريا" و"باربارى" مع وصف للبلاد وحكامها عبر التاريخ. وفي الجزء الثاني أشار "الأب بيير دان" إلى المدن القرصانية في شمال لإفريقيا، وأوضاعها وجزأه إلى 24 فصلا في خمس إخباريات. الخبر الأول: حول أوضاع مملكة الجزائر ومدينتها ودورها القرصاني، والخبر الثاني: حول مملكة تونس ومدينتها، وقراصنتها، الخبر الثالث: تحدث على ممالك المغرب ومدينة سلا ودورها القرصاني، الخبر الرابع: خصص للمدن الإسلامية القرصانية الأخرى، الخبر الخامس: تحدث عن عقيدة الإسلام المنتشرة في شمال إفريقيا ومظاهر مجتمعها.

أما الجزء الثالث من الكتاب يتضمن أساليب العمل القرصاني ونتائجه، خصص له المؤلف ثمانية فصول للاهتمام بالحياة العملية لقراصنة شمال إفريقيا مشيرا إلى أسباب نجاح المسلمين في هذا المجال، وكيفية استعدادهم وتجهيزاتهم المعتمدة، ثم يتطرق إلى أهمية الغنائم وكيفية توزيعها.

وفي الجزء الرابع يشير المؤلف إلى أهمية العلوج، ووضعيتهم وأدوارهم القرصانية والعسكرية. تطرق الى دوافع تحول المسيحيين الى علوج ، و مساعي المسلمين في إجبار على ذلك... ثم يتحدث عن العقوبات التي يتعرض لها من ارتد منهم عن الإسلام أو حاول الفرار الى الأراضي المسيحية.

أما الجزء الخامس تحدث المؤلف حول معاناة المستبعدين المسيحيين، وكيفية افتدائهم. وفي الجزء السادس والأخير تطرق المؤلف إلى أدوار منظمة الثالوث الأقدس.

للكتاب أهمية كبيرة بالنسبة للباحث المهتم بتاريخ شمال إفريقيا، وتاريخ الجزائر بشكل خاص، بفضل ما تضمنه من معلومات جديرة بالاهتمام.

3. جيمس ليندر كاثكارت (James Leander Cathcart) مذكرات كاثكارات:

لقد تناول كاثكارت في مذكراته العقالات الجزائرية الأمريكة، وهي المصدر الأساسي والوحيد في هذا المجال في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وذلك لأن كاثكارت هو الذي تولى المفاوضات مع الداي في مختلف مراحلها لعقد المعاهدة الأولى مع أمريكا، مستغلا في ذلك معرفته بنفسية الداي وبهيكل العلاقات الخارجية بصفة عامة، كما تطرق كاثكارت في مذكراته إلى علاقات الجزائر بالدول الأوروبية، ولقد وصفها بأنها مليئة بالتنافس والتطاحن من أجل المصالح السياسية والتجارية، وقد خصص فصلا لوصف الشؤون البريطانية في الجزائر.

كما أشار كاثكارت إلى المؤسسات والمنشآت العمومية، ووصفها وصفا دقيقا، فيتحدث بصفته شاهد عيان، عن المدارس والمساجد والسجون.. وقد خصص فصلا لوصف قصر الداي من الداخل في عهد حسن باشا، ويعتبر وثيقة هامة لا مثيل لها حيث تعرفنا بمختلف أجنحة القصر ودهاليزه ومرافقه وشكله وزخارفه.

كما تطرق في مذكراته الى الحياة الاجتماعية، بالرغم أنه لم يختلط بالشعب الجزائري، لأنه عبد لا يسمح له بالخروج إلا في مواسم الأعياد، سجل كاثكارث أن الشعب الجزائري كان يعاني من الإرهاق بالضرائب والظلم والجوع والأمراض، في ضل الحكم العثماني، كم أن وصفه للسجون ي أواخر القرن الثامن عشر، يعتبر وثيقة مهمة، دقيقة وشاملة بشأن تشغيل الأسرى، طعامهم، نومهم، الرقابة و الإدارة.

كما تناولت المذكرات دور اليهود في قصر الداي، وبصفة خاصة دور كوهين بكري الذي كان موظفا ومترجما في قصر الداي، قبل أن يقيم إمبراطورية القمح في أواخر القرن التاسع عشر، والتي كان من الأسباب الأساسية في احتلال الجزائر.

4. فونتور دي بارادي (Venture de Paradis) تونس والجزائر في القرن 18:

لقد ترك "فونتوردي بارادي" عدة مؤلفات بعضها مطبوع وبعضها لا يزال مخطوطا بالمكتبة الوطنية بباريس ومن بين مؤلفاته ترجمة كثير من الكتب العربية النادرة ومن أهم ما ترجمه: تاريخ الخلفاء والمماليك بمصر للشيخ يوسف المقدسي، والموجز الجغرافي والتاريخي لدولة المماليك لابن شاهين الزيري.

ومن أهم ما ألفه كتاب "تونس والجزائر في القرن 18 وهو عبارة عن تقارير عديدة تتضمن معلومات غزيرة عن الحياة السياسية والاجتماعية في الإيالتين: تونس والجزائر. والكتاب يعتبر بحق مصدرا تاريخيا متميزا من حيث معلوماته والحقائق التي جاء بها، وفريدا من نوعه من حيث التفاصيل التاريخية التي يحتوي عليها بخصوص سير الإدارة الجزائرية بمختلف أجهزتها العسكرية والمالية والأمنية وضمنه معلومات الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الإيالتين. وقد تميز هذا الكتاب بالدقة في تسجيل الأحداث ووصفها، وهي الميزة التي تكاد لا توجد في المؤرفات الأوروبية الأخرى في تلك الفترة.

5. لوجي دوتاسي (Laugier de Tassy) تاريخ مملكة الجزائر:

طبع بباريس بالعنوان الكامل: تاريخ مملكة الجزائر، حكومتها وقوتها البرية والبحرية ومداخيلها، الشرطة، القضاء، السياسة والتجارة"، وهذا المصدر عبارة عن دراسة دقيقة ومفصلة حول تاريخ الإيالة، نظامها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

لقد تم إعادة طبع الكتاب عدة مرات سنة 1732، في أمستردام، سنة 1750 بلاهاي، كما ترجمته إلى عدة لغات إلى اللغة الإنجليزية، الألمانية سنة 1753، الإيطالية سنة 154 والفرنسية سنة 1757م.

من موقف الكاتب من خلال هذا الكتاب هو وضع حد لكل الأحكام المسبقة السائدة في أذهان رجال الدين في أوروبا، وتصحيحي الأخطاء الشائعة والنظرة الحاقدة إلى الدول الأخرى وشعوبها خاصة في شمال إفريقيا

وبالتحديد الجزائر، رغم أن هناك سلبيات في نظام الحكم التركي، إلا أن هناك إيجابيات لا يمكن إنكارها، وبذلك يمثل "دوتاسي" تيارا فكريا جديدا في أوروبا الذي بدأ يبرز في منتصف القرن 18م.

6. توماس شو (Tomas Shaw) جولة في إيالة الجزائر:

لقد استطاع "توماس شو" أن يقدم عملا نادرا بعنوان "حولات في ولايات متعددة ببلاد البربر والشرق" في جزئين تضمنا أوصافا دقيقة وتفاصيل عن بلاد الجزائر وخاصة عن ريفها ومنتجاتها، كما تضمنا معلومات عن الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية.

ويعد الكاتب من الدارسين والرحالة الذين حاولا التحدث عن بلاد الجزائر خلال النصف الأول من القرن 18م إذ رسم خريطة وضح عليها معالم جغرافية وحدد بها حدود إيالة الجزائر وخاصة حدود بايليك الشرق الجزائري.

ولقد طبعت أعماله باللغة الإنجليزية مرتين بأكسفورد سنة 1738 وبلندن عام 1757، مثلما ترجمت هذه الأعمال إلى الفرنسية مرتين الأولى طبعة لاهاي عام 1743 والثانية طبعة باريس عام 1930.

7. تيدنا "نظرة على إيالة الجزائر":

كان تيدنا يرافق الباي محمد الكبير في كل تنقلاته وعلى هذا الأساس تعتبر مذكراته مصدرا هاما، يقدم معلومات عن شخصية الباي، نظام حكمه، وعلاقاته مع مختلف شرائح المجتمع الجزائري من جهة، وبين الجزائر وأوربا من جهة أخرى.

كان يتقن اللغة الإسبانية، الإيطالية، العربية، الأمر الذي أهله أن يتولى مهاما في حياته الدبلوماسية بعد إسترجاع حريته وعودته الى فرنسا. وفي سنة 1785 كتب هذه المذكرات في إحدى مستشفيات زوريخ (Zurikh)، وقد جاءت على شكل اعترافات وهو مريض.

ساهم تيدنا في إثراء الخطة الفرنسية لاحتلال الجزائر، حيث أسرع في جمع ذكرياته و جعلها في مذكرة تحت عنوان: "نظرة على إيالة الجزائر" ذكر فيها أعمال القراصنة ووحشية البربريين ووضح أن سلطنة الداي والبايات الثلاث قائمة على أقلية من العسكريين ذوي الامتيازات.

ومهما يكن فإن مذكرات تيدنا قدمت لنا صورة واضحة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر، والمعاملة الحسنة التي كان يحظى بها الأسرى المسيحيين في الجزائر، كما قدمت لنا أيضا صورة واضحة عن أحد البايات الكبار الذين عرفتهم الإيالة الجزائرية في القرن 18م.

يتميز تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية، بتنوع المصادر الغربية، وغزارتها وهي ذات جنسيات مختلفة منها الفرنسية، الإسبانية والإيطالية، الإنجليزية والأمريكية.